

بنية الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بين إشكالية التأويل والفهم العقلاني

The structure of the call discourse in the Holy Quran between the problematique of interpretation and rational understanding

السعيد مسعي محمد¹

mesaimohammed.said@univ-emir.dz

ORCID ID: 0009-0008-1824-478X

تاريخ النشر: 2025/12/15

Received: 31/01/2025

تاريخ الاستلام: 2025/01/31

published: 15/12/2025

ملخص المقال : يعد الخطاب الدعوي في القرآن الكريم من أجل ألوان الخطابات على الإطلاق؛ كون نصوصه مبنية على تشريعات وأحكام وفق ضوابط قرآنية وخصائص مميزة يتعذر على الإنسان أن يأتي بمثله ولو أوتي من الفصاحة والبيان قدرا كافيا ما كان له أن يوازي كلام الله جل وعلا، وفي خضم هذا تعددت ألوان التأويلات حول المقاصد العامة لجملة نصوصه، وأخذت اتجاهات متعددة في منحى التفسير حيث اختلفت وجهات النظر لدى أصحاب الدعوة في بيان مضامين الخطاب الدعوي في القرآن الكريم حسب طبيعة الفكر والرؤية التي يرى من خلالها الداعية الصواب في اسقاط النصوص الدعوية على أرض الواقع، والعامل فيها أن ينظر ببصيرة ثابتة للنص وفق ما اعتمد عليه السلف الصالح دون تأويل محرف بالزيادة أو النقصان حتى يسنى له استجابة لخطاباته الدعوية وفق ما يدعو إليه بما أمر به الله سبحانه وتعالى أن يوصل ويكون، ومن أجل هذا تهدف هذه الدراسة إلى تبين جملة من المفاهيم حول بنية الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بين إشكالية التأويل والفهم العقلاني. **كلمات مفتاحية:** بنية، الخطاب الدعوي، إشكالية التأويل، الفهم العقلاني

Abstract: The preaching discourse in the Holy Qur'an is considered one of the most sublime forms of discourse ever, as its texts are based on legislations and rulings governed by Qur'anic principles and distinctive characteristics that make it impossible for any human to produce anything similar to it. Even if endowed with eloquence and linguistic mastery, one could never equal the words of Allah, Glorified and Exalted be He, amidst this, various interpretations have emerged regarding the general objectives of its texts, leading to multiple approaches in the field of exegesis. Differences in perspectives among preachers have shaped the way they articulate the meanings of the Qur'anic preaching discourse, depending on their intellectual framework and the vision through which they perceive the correct application of these texts in reality, a wise person should approach these texts with keen insight, adhering to the methodology of the righteous predecessors without distortion—whether by addition or omission—so that the response to the preaching discourse aligns with what Allah, the Almighty, has commanded to be conveyed and upheld, for this reason, this study aims to clarify a set of concepts regarding the structure of the preaching discourse in the Holy Qur'an, exploring the dilemma of interpretation and rational understanding.

Keywords: Structure, Preaching Discourse, Interpretation Dilemma, Rational Understanding

مقدمة:

لا ريب أن الخطاب الدعوي في القرآن الكريم يمثل نموذج بلاغي من أجل ألوان الخطابات على الإطلاق؛ كون نصوصه مبنية على تشريعات وأحكام وفق جماليات ضوابط قرآنية وخصائص مميزة يتعذر على الإنسان أن يأتي بمثله ولو أوتي من الفصاحة والبيان قدرا كافيا ما كان له أن يوازي كلام الله جل وعلا، وهذا دليل على قوة الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وفي خضم هذا تعددت ألوان التأويلات حول المقاصد العامة لجملة نصوصه، وأخذت اتجاهات متعددة في التفسير حسب مناهج المفسرين، حيث اختلفت وجهات النظر لدى أصحاب الدعوة في بيان مضامين الخطاب الدعوي في القرآن الكريم حسب طبيعة الفكر والرؤية التي يرى من خلالها الداعية الصواب في اسقاط النصوص الدعوية على أرض الواقع، والعامل فيها أن ينظر ببصيرة ثابتة للنص وفق التفسير الصحيح وما اعتمد عليه السلف الصالح دون تأويل محرف بالزيادة أو النقصان حتى يسنى له استجابة لخطاباته الدعوية وفق ما يدعو إليه بما أمر به الله سبحانه وتعالى أن يوصل ويكون، ومن أجل جاءت هذه الدراسة تبين شيئا يسيرا من جزءا كبيرا حول إشكالية تأويل النصوص الدعوية ومقاصدها العامة في سياق الدعوة إلى الله عز وجل قولاً وفعلاً ومنهجاً.

الإشكالية: من خلال ما سبق نطرح الإشكالية والتساؤل التالي: ما المقصود بالخطاب الدعوي في القرآن الكريم؟ وما طبيعة بنية الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بين إشكالية التأويل والفهم العقلاني؟

الأهداف: تهدف هذه الدراسة إلى تبيان جملة من المفاهيم حول بنية الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بين إشكالية التأويل والفهم العقلاني، ما يمكن لنا من خلاله أن نتأسى بما فتح به الله علينا من معرفة الحق حول مجريات نص الخطاب الدعوي وفقه أحكامه ليكون بذلك الداعية خير خلف لخير سلف في الدعوة والتبليغ لما جاءت بسببه الدنيا والآخرة انطلاقاً من التوحيد الحق إلى الإيمان المطلق الذي لا يعرف الشك.

تحديد المفاهيم

1.2 مفهوم الخطاب الدعوي: نظرا لتعدد المعاني لمتغيرات البحث واختلاف وجهات النظر حول إشكالية هذا الموضوع يحتم علينا طبيعة الدراسة بالتعريف بأهم مصطلحات البحث وتحديد أبعادها ضمن محور الدراسة التي تدور عليه فحو الإشكالية

1.3 تعريف الخطاب الدعوي لغة:

لتحديد المعنى العام لمصطلح الخطاب الدعوي يجب أن نعرف مدلول المصطلح من الناحية اللغوية لإزالة اللبس وتحديد الغرض المنشود منه في منحنى الدراسة، حيث جاء في لسان العرب لابن منظور (ابن منظور، 1414هـ، صفحة 361): "يُقَالُ: خَطَبَ فلانٌ إلى فلانٍ فَخَطَبَهُ وأَخْطَبَهُ أي أجابه. وَالْخِطَابُ وَالْمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالْكَلَامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَاباً، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ".

أما مصطلح الدعوة لغة يعود إلى الفعل الثلاثي "دعا" يقول ابن منظور في لسان العرب (ابن منظور، 1414هـ، صفحة 258): "وَدَعَا الرَّجُلَ دَعْوًا وَدُعَاءً: نَادَاهُ، وَالْإِسْمُ الدَّعْوَةُ. وَدَعَوْتُ فُلَانًا أَي صِحْتُ بِهِ وَاسْتَدْعَيْتُهُ".

1.4 تعريف الخطاب الدعوي اصطلاحاً:

لقد تعددت تعريف كل من الخطاب الدعوي في الجانب الاصطلاحي حسب طبيعة المرجع الذي استند عليه الكاتب في إبداء رأيه وحسب طبيعة الزاوية التي رأى منها النور في تحديد المعنى المراد في هذا المصطلح ومن جملة هذه التعريف نذكر:

- **الخطاب اصطلاحاً:** يعرفه عبد الحليم محمود بقوله (عبد الحليم محمود، 1990، صفحة 169): "وهي لون من ألوان القول، يحشد له الخطيب من الأسباب ما يمكنه من التأثير في سامعيه، وجذبهم إلى جانب ما يدعوهم إليه عن طريق: الإقناع بما يسوق من حجج وبراهين. والإمتاع بحسن اختيار الكلمات، وجميل العبارات، وملائم الإشارة، والدقة في اختيار الموضوع الذي يشد اهتمام الناس، مع حسن سمت الخطيب، وجميل صوته، وقدرته على إجادة فنيّ الوصل والفصل في الكلام".

ونظراً للتقارب اللغوي بين مصطلح الخطاب ولفظة الخطابة فقد اقتضت على تعريف الخطاب نسبة لتعريف الخطابة بحيث اشتركوا في القواسم بينهم، ولما فيه من توافق في المضمون، إلا أنه إذا سلطنا النظر على لفظ الخطاب دون مراعات مجالات وتخصصاته لوجدنا فيه الكثير من التعريفات والمفاهيم التي ترمي إلى صور عدة من المعان والمضامين، لذا اقتصرنا على هذا التعريف المذكور آنفاً لما يحقق لنا المفيد حسب طبيعة بحثنا هذا.

- **الدعوة اصطلاحاً:** يعرفها علي محظوظ بقوله (علي محظوظ، 1979م، صفحة 17): "حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة عاجل والآجل".

- **الخطاب الدعوي:** هو الخطاب الديني الذي يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق ما أمر به الله تعالى في القرآن الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة وشتى الأساليب والوسائل المشروعة بغية تحقيق المقاصد العامة من نشأة التكوين وإيجاد الخلق.

ولقد اتسم الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بعدة مؤشرات جعلت منه خطاباً يتعدى بأساليبه جغرافيا المكان ومعالم الزمان نسبة لخصائصه الربانية بحيث يعالج جملة المسائل البشرية من بداية العالم إلى النسخ في الصور، وكل ذلك لما بُني عليه الهيكل العام للخطاب، ومن جملة هذه المؤشرات ما تضمنته الآية الكريمة في قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (سورة النحل، الآية: 125) بحيث تعتبر الأساليب المذكورة في حيز هذه أمر الدعوة الإسلامية لخير مؤشر للخطاب الدعوي، وهي بمثابة ركائز أساسية متينة تقتضي وجوب الاهتداء بها في الدعوة إلى الله عز وجل لكي يبني عليها الداعي المؤهل منهجه حتى يضمن بذلك سلامة الاستجابة لدعوته.

- **العقلانية:** والمقصود بذلك تحكيم العقل الراجح في التعامل مع مسائل ودواعي الخطاب الدعوي، باعتباره المرجع الأساسي الذي يستند عليه الداعي في أمر الدعوة والتبليغ، والذي بدوره يفرّق في المسائل بين ما هو حق في مشروعيته وباطل في أصله حتى يكون الداعي على بصيرة من أمره، ويعرف كيف يتكيف إيجاباً مع اسقاط النص وفق متطلبات واقع المدعوين.

- **التأويل:** إن المقصود بهذا المصطلح في حيز هذه الدراسة هو تفسير النص الدعوي تفسيراً صحيحاً وفق ما أقرته أقوال المفسرين القدماء وذلك بالرجوع إلى واقع التفسير مع أصحاب القرن الأول والثاني من عصر الصحابة والتابعين الذين عايشوا منطق النص مع الواقع المعاش ما يضمن استجابة الخطاب الدعوي، وما يحقق مبدأ التأسي بهم ضمن مجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ضوء هذا نجد النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه كان يمثل ترجمة عملية لنص القرآن الكريم آية بآية وسورة بسورة حتى يكون هذا العمل فيه قدوة حسنة وأثراً طيباً للدعاة والمصلحين قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (سورة الأحزاب

(الآية: 21)، وقال تعالى أيضا: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (سورة الممتحنة، الآية: 06)

الخطاب الدعوي بين إشكالية التأويل والفهم العقلاني

1.3 الخطاب الدعوي وضرورة التأويل:

من المعقول أن نرى بأبصارنا حقيقة الأشياء ونسمعها حتى نصيب في الكلام عنها والخوض فيها وفق ما تدعو إلى ضرورة التدخل وحتمية التفكير ليكون الناظر والعامل فيها محط تأمل ومحل استبصار لغة ودلالة مضمون، فليس من المعقول أن يمر الداعية ممر الكرام على أمر قد قُدر نصه في محكم التنزيل فيتخبط في تفسيره أو يتركه على غير علم به لاسيما في مواضع النصوص الدعوية، لذا من الأجدر قولاً وفعلاً وتدبراً على الدعاة التفقه في ضرورة التأويل الصحيح لجملة النصوص القرآنية ذات الطابع الدعوي مستأنساً بمن سبقه في هذا الميدان والمجال من سلف الصالح ليكون بعد ذلك نبزاً يستضاء بعمله وفكره وتأويلاته في بعض المسائل القرآنية، وحتى يضمن استجابة دعوته واتساع رقعة مجلس علمه، ولا يتأتى له ذلك إلا بجمالية ضرورة التأويل الصائب للنصوص.

لقد أخذ الخطاب الدعوي لاسيما في العقد الأخير من هذا القرن ألواناً عديدة من وجوه التأويل والتفسير، حيث يخضع كلا منهم إلى الإطار والمرجع الذي يستند عليه المفسر في التأويل، فمنهم من يصيب ومنهم من يخطأ، ولا عاصم من الخطأ في ذلك إلا من اعتصم بمجل الله عز وجل ومجل السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وأرضاهم.

وحتى نوضح إشكالية التأويل المطروح في سياق هذه الدراسة ويستبين المراد منه لا بد أن نبين إن المقصود بالخطاب الدعوي في هذه المخطط العلمية هو تركيبته العامة التي بُني عليه الخطاب الديني الخاص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق الدعوة إلى الله عز وجل، ومنحى نشر الإسلام، ومن المعلوم أن مرتكزات الخطاب الديني لا تقتصر على جانب واحد وإنما لها عدة جوانب، ولعل أبرز جانبها فيها هو جزئية الدعوة إلى ما أمر الله به عز وجل أن يوصل إلى جملة عبادته سواء منهم المسلمون وغيرهم، إلا أن دعوة المسلم تأتي في حيز الدعوة إلى تهذيب الأخلاق وتعديل السلوك عنده وفق ما يتماشى مع فطر الإسلام المعتدل مع كافة أطراف الخلق؛ أي أنه يتصف بالثبات في الأحكام الأصولية والتشريعية، ويكون مرناً في المسائل الفرعية مثل علم الأخلاق والرفاق والتماشي مع حداثة العصر وفق ضوابط الشريعة هذا من جهة، أما من جهة أخرى نجد جزئية الخطاب الدعوي الموجه إلى غير المسلمين لها منهج يتخلف عن غيره في الدعوة إلى الإسلام؛ أي أنه حينما نتوجه إلى غيرنا من المسلمين بالدعوة لا بد علينا مراعاة مطالب الإسلام الأولى أو بعبارة أخرى إلى الركائز التي بُني عليها الإسلام حتى يتبين معنى وجودهم في الحياة، ومن ثم تتنوع مناهج الدعوة إليهم مثل باقي الخلق، لكن هنا بيت القصيد كيف نثمن دعوة الخطاب الدعوي ونزيل عنه إشكالية الالتباس، وتأويله نصوصه تفسيراً صحيحاً مثلما جاء تحكيم نصه في القرآن الكريم بحكمة بالغة يتذوق معانيه من كان له قلب وسمع وفكر رشيد، بحيث يحسن التعامل مع المدعويين وفق الواقع من جهة، ومن قوانين الدعوة وتحكيم النص من جهة أخرى، لكن حينما يغلب على فكر الدعاة شيئاً من الغلو في الدين ومظاهر التطرف عن كل ما جاء به الدين الحنيف دون مراعاة لوسطية الخطاب الديني المعتدل حينها يُفسد منحى الخطاب الدعوي ويتوجه إلى غير صوابه وإلى ما جاء إليه، ومن ذلك أصبح أصحاب بعض المذاهب الفكرية المتعصبة لحزب دون آخر يرون أنفسهم هم على تحقيق الأمر، ومع ذلك يضربون دعوة غيرهم من الدعاة والعلماء عرض الحائط، وكل ذلك ناتج عن سلبية القراءة الصحيحة تجاه أمر الدعوة والدين.

وعليه فضرورة التأويل لا تكاد مقصورة في حيز تحييد المعاني - وفق ما يمليه الخاطر دون اعتبار للضابط الشرعي الذي يحكم مجرى الحكم الحقيقي لأمر الدعوة- وتخبط في منحى اللغة وتذبذب في سياق المعنى المقصود وإنما يكون التأويل المقنع خاضع لما تمليه مواضع الآيات من آية لأخرى حتى يكون التأويل يشكل رؤية صواب يعتمد عليه في تحليل مضمون الخطاب الدعوي والاستفادة منه في اسقاط النصوص على الواقع المراد فيه الدعوة، بالإضافة إلى ذلك لابد من تحديد الخطاب إلى ما كان عليه سابقا بالواقع الحي والملموس لتطبيق كل آية دعوية ولخير مثال في هذا واقع النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام البررة رضي الله عنهم حيث كان الأمر مقترن بالفعل سواء كان أمر الآية أمرا بارزوا إلى الإتيان به، وإذا كان أمر الآية نهيًا امتثلوا مباشرة إلى النهي عنه دون إلتفات إلى مصالحة النفس ولا تضجر في القلب تصديقًا لقوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (سورة الحشر، الآية: 7) يقول الحافظ ابن كثير (مركز تفسير للدراسات القرآنية و الحافظ بن كثير، 1443هـ - 2021م، صفحة 804) في تفسير هذه الآية: "أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بخير وإنما ينهى عن شر"، وكل ذلك ولما لهم من أسوة حسنة في التعايش مع فقه الدعوة والواقع معا وفقا لما يمليه النص القرآني، حيث كان الواقع آنذاك يعزز أليات التأويل ومناهجه العقلية والعملية، كما يعزز بالضرورة من صلاحية التأويل الصحيح لفقه الخطاب على اختلاف مجالاته وتخصصه مما يلم شعث الطوائف والحركات الإسلامية والطوائف الفكرية المتطرفة إلى فحو الصواب لاسيما منها طوائف الحركات الإسلامية المعاصرة.

والمقصود بالتجديد في هذا المقام هو (عطية عدلان، تجديد الخطاب الدعوي في المرحلة القادمة، 2022) "تجديد الخطاب الدعوي، وهو تجديد لا يفرغ النص من مدلوله ومحتواه، ولا يلوي أعناق النصوص لتوافق الأهواء والمزاعم، ولا يتخذ التأويل ذريعة لتحريف النصوص وتمييع الأحكام، فالتجديد في الأسلوب ومنهجية العرض، لا في صلب الدين ومحتواه، ولا حتى في مصطلحاته، فلا تجديد في الأحكام والمفاهيم الواردة في الكتاب والسنة، فالمسلم مسلم، والكافر كافر، والمنافق منافق، وأركان الإسلام ثابتة، وأركان الإيمان ثابتة، وأمور العقيدة هي هي، وإنما التجديد في وسيلة الطرح وأسلوب الطرح، ومراعاة أحوال المتلقين مكانًا وزمانًا " حتى لا يذهب الفكر بعيد عن المقصود من أمر التجديد، وبالتالي فعملية التجديد على مستوى الخطاب الدعوي يزيد من فقه التأويل الصحيح والمتزن بين النص والواقع، وكل تأويل لا يستند على الإطار المرجعي الذي رسمه خير معلم البشرية الخير صلى الله عليه وآله وسلم لا يصح سندا في الاتكال عليه لا رسما في ذلك ولا منهجا ولا استئناسا به في ضوء الشواهد والحجج والبراهين، وفي خضم هذه المعطيات أصبح تأويل الخطاب الدعوي بنصوصه ضرورة تستدعي التأمل والمراجعة بفكر رشيد وبصيرة ناقبة لكي يعطي بذلك من له أهلية في علم الدعوة انعكاسا إيجابيا تستظل في ظله الدعاة الجدد، ولكي يعطي بعدا مثالي في تأصيل قضايا الخطاب الدعوي وفق تشريعات النص الديني ولما يدعو إليه حتى تحقق الاستجابة ويمتثل المدعو إلى لما دعي له.

ولعل من أبرز الوجوه الذي أثر على سلبا على واقع الخطاب الدعوي في الاستجابة لما يدعو نجد (عطية عدلان، 2022) "سيطرة المذهبية الفكرية والفقهية على عقلية الداعية، واحتباسه في تعاليمها، وعدم قدرته على الخروج عن إطارها، مما يعطي خطابه صبغة حزبية، تضطر المخاطب إلى التبكير باتخاذ موقف نفسي من طرحه، وتقلل من قناعة الجمهور بما يقول، الأمر الذي يؤدي حتمًا إلى تخلف الاستجابة ". حيث ساهمت هذه الأخيرة جراء التأويل المنحرف لنص الخطاب الدعوي في تكهرب الفكر وانحلاله في مشارب تكاد تزيغ بالعقل إلى ما لا يحمد عقباه في المسائل الدعوية، وأمسى بذلك كل واحد مستعصم بعصم الأفكار الدخيلة والتأويل المنحرف فيها، ما أدى

بنخبة من رجال الدعوة الاعتماد المذهبية الفكرية والفقهية على عقلية دون الرجوع إلى مصادر الشريعة من الكتاب والسنة والتفقه فيها وفق ما تصبوا إليه عقلية السلف الصالح من الأمة المحمدية، ولا سبيل للخروج من مثل هذه المزالق إلا بالاعتدال في المنهج الفكري والدراسة الموضوعية دون غلو ولا تطرف ليكون التأويل بذلك صحيح مبني على أسس متينة مستوحاة من نور ومشكاة الهدي النبوي والدقة القرآنية.

2.3 الخطاب الدعوي وحتمية الفهم العقلاني:

لا شك أن الخطاب الديني عموما في القرآن الكريم منزّه عن كل صفات النقص والزلل مخضرم بكل معاني الكمال ومميزات المعالي، وفي ذلك لقد شاء الله سبحانه وتعالى في عالم الذر بإرادته وحكمته البالغة قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة أن يتربع كلامه على عرش المعجزات البلاغية والألوان البيانية على اختلاف الصور وبلاغة الفنون الأدبية، فجاء كلامه منزّه على جملة النقائص والأخطاء فكان نبزاسا يُستضاء به لمن آمن به من البشرية قاطبة في أفق الحياة منذ فطرته ونشأتها الأولى حتى يوم التلاق.

وفي خضم هذه المعطيات اتسم القرآن الكريم في تشريعاته ونصوص أحكامه بمنهج قويم يضمن للإنسانية الحياة الطيبة لقوله جل وعلا: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة الأنعام، الآية: 153)، وهذه الآية الكريمة لوحدها كافية لإنذار الخلق في الرخصة عن هدي الله تعالى للناس حتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة، وكل مراد ذلك لإسعادهم بالحياة الطيبة وفق منهج (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (سورة فصلت الآية: 42)، ومن جملة هذه السمات أنه جاء خطاب عالمي شامل لمتغيرات ظروف الزمان والمكان للبشر في الحياة وما بعدها، لذا كان لطيفا في تشريعاته وتطبيق أحكامه وفق ما تتحملة الذات البشرية من التكليف، تبيانا لهذا فقد أرسل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، كما انفرد الخطاب الدعوي بالثبات في الأحكام والمرونة في التكيف مع مستجدات حوادث العصر تماشيا مع طبيعة كل عصر بغية التنمية والتفاعل الإيجابي لروح الحداثة وفق ما يرضي الله سبحانه وتعالى، ومن جملة هذه السمات أيضا أنه وضع أسس متينة في تعامل الدعوة مع المدعويين للإسلام، فمثاله أن الناس إن لم يكونوا إخوة في الدين الواحد فهم بالضرورة أخوة في الإنسانية، (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة، الآية: 256)، وهذا ما يزيل طبقة الخلاف والتعصب بين أطراف الحركات الإسلامية، وهنا تجدر بنا الإشارة من أنه لابد لحامل رسالة الإسلام والداعي إليه من التصالح مع البعد اللغوي والبعد الفقهي لبنية الخطاب الدعوي ليكون التأويل صائبا تبعا لمجرى الأحداث والمقاصد العامة التي نزل في حقها النص، ولتحقق المصالح والغاية المنشودة من نشأة وإيجاد الخلق.

ومن المعلوم أن تعدد أطراف الحركات الإصلاحية والدعوية منها ما يعزز بالضرورة سماحة الدين الإسلامي وشريعته؛ لأن جملة هذه الحركات وإن اختلفت في المناهج وفهي متفقة في أفق واحد وهو تحقيق ما كان عليه مبدأ الخلافة الإسلامية الراشدة، لكن تعدد وجهات النظر للخطاب الدعوي دون اعتبار لمقاصده العامة أدى إلى تبثر القراءة الحكيمة الراشدة لنص الخطاب مما زحزح التأويل الصحيح وكيفية التعامل معه، فمنهم ما كان يعتمد في التأويل على ظاهر النص دون الرجوع للدلالة اللغوية في التفسير التي بني عليها الخطاب، وعدم التفقه في أسباب وأحكام نزوله وطبيعة الظروف المحيطة بالاجتماع التي نزل من أجلهم الخطاب، كل هذا يؤدي إلى تأزم العلاقة بين الداعي والمدعو

نتيجة للتضارب التأويلي الحاصل بينهم في متن النصوص، مما يؤثر سلبا على واقع الدعوة الإسلامية في أصولها ومصداقيتها ومدى صلاحيتها عبر الزمان.

لقد بني الخطاب الدعوي في القرآن الكريم على جملة من الأسس والقواعد مبنية أساسا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تضبط هذه القواعد منهجية العمل الدعوي في حيز انتشار الإسلام وفق مقتضى ما أمر الله به سبحانه في محكم التنزيل لقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْتَدِينَ) (سورة النحل، الآية: 125)، وفي ضوء هذا الخطاب أرشد الحق سبحانه وتعالى باتباع سنن الهدى في تبليغ الرسالة بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة تقديرا لظروف المدعويين، وأخر أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن لحكمة الدعوة، ورفقا بالمخاطبين حتى يعكس الموضوع سماحة منهج الإسلام في مبنى الحوار وطريقة المعاملة، وعلى اختلاف طبيعة الأجناس البشرية وتبعاً للنسق الاجتماعي لكل أمة من الأمم خصص لهم الحق منهج كفيل بدعوتهم بما يتماشى مع فطرتهم قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (سورة المائدة، الآية: 48).

وللخروج من مشكلة الخلاف التأويلي لابد من تحكيم وتفعيل الفهم العقلاني تجاه مضمون النصوص الخطابية دون غلو ولا تطرف بالاتباع لا بالابتداع كما جاء في ضوء هذه الآية (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (سورة لقمان، الآية: 15)، فلا سبيل للداعي العاقل صاحب الفكر الرشيد والبصيرة الثاقبة المؤهل لحمل الرسالة والدعوة إلى الله عز وجل في حل هذه المسائل إلا باتباع منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنظر في هديه وكيف كان يتعامل مع أصناف المدعويين، وكيف كان أنه يعلم ويربي أصحابه في معالجة مثل هذه القضايا بالتي هي أحسن دون تعصب ولا تكلف ولا مشقة في تسليط الأحكام فهو صلى الله عليه وآله وسلم مع جملة أصحابه عليه الرضوان أسوة حسنة قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (سورة الأحزاب، الآية: 21)، وقال تعالى أيضا: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعِزُّ الْحَمِيدُ) (سورة الممتحنة، الآية: 6)، وهذه الآيات كفيلة بمهدي الدعاة والتخلي بمنهجهم السوي القويم الذي لا عوج فيه ولا خلال، وإذا وقع شيئا من الاختلاف وجب الرجوع به إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (سورة النساء، الآية: 59).

وهنا نكون قدر عرجت على شيئا يسيرا على بنية الخطاب الدعوي ومضمونه في القرآن الكريم، وتبيننا لإشكالية التأويل الحاصل في قراءة الدعاة للنصوص الخطاب الدعوي واختلاف تفسيرها على أرض الواقع، وتحكيم العقل وفق الفهم السليم لجرى الأحكام والنصوص الدعوية، وبعد هذه الرحلة في رحاب البحث نستنتج أن الخطاب الدعوي في القرآن الكريم مبني على أسس متينة غير قابلة للانحراف وهو من جزئيات الخطاب الديني العام في القرآن الكريم. ومن النتائج أيضا أن الاختلاف هو سنة فطرية بين العباد لكن العاقل فيها أن يرجع كل

خلافاته إلى منطق القرآن الكريم والسنة الشريفة صلى الله وسلم على صاحبها باعتبار القرآن والسنة هو المعيار لقياس وميزان الحقائق، وللخروج من مشكلة الخلاف التأويلي لابد من تحكيم وتفعيل الفهم العقلاني تجاه مضمون النصوص الخطابية دون غلو ولا تطرف بالاتباع لا بالابتداع حتى تتحقق الاستجابة وتعم الفائدة.

خاتمة:

- وبعد هذه الجولة في رحاب البحث والدراسة نلخص إلى جملة النتائج التالية:
- يعد الخطاب الدعوي في القرآن الكريم من أبرز جزئيات الخطاب الديني رسماً ومنهجاً لاسيما في حيز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
 - اتسم الخطاب الدعوي في القرآن الكريم بعدة مميزات انفرد بها عن غيره من ألوان الخطابات الوضعية باعتباره شامل لكل متطلبات الواقع المعيش للفرد والمجتمع، ويدعو إلى كل ما يساهم في التنمية الذاتية والاجتماعية للذات الانسانية مما عزز من وحدته العملية وآليات منهجه السوي وأساليه التربوية وفنونه الأدبية لاسيما في التعامل مع كافة أطراف وشرائح المجتمع.
 - يعد التأويل والتفسير من أبرز صور الإيضاح وإزالة اللبس عن المسائل العالقة ذات التداخل المعرفي ضمن مجالات الدينية.
 - كما يعد تأويل الخطاب الدعوي في القرآن الكريم ضرورة علمية وحتمية دينية تتطلب من الجميع التمعن في دلالة المعاني والتوغل في علم المقاصد الشرعية ليكون الداعية والمؤهل لحمل رسالة الإسلام خير سفير عن سلف الأمة في إدارة الدعوة الإسلامية، ولا يتأتى له ذلك حتى ينبسط في رحاب الشريعة بالتفسير والاتباع لا الابتداع ليكون بذلك رمزا للهداية وبعيدا عن الغواية.
 - شكل تأويل الخطاب الدعوي حيزا كبيرا بين أطراف العلماء والدعاة فمنهم من أخذ بجادة الصواب فكان على بصيرة من الأمر فساهم بذلك في اتساع رقعة الإسلام وانتشاره، ومنهم من أخذ لونا مخالفا ومنهجاً مغايراً في تفسير وتأويل مضامينه دون الرجوع إلى مصادر الشريعة من الكتاب والسنة وفق ما أمر به الله تعالى فأدى بذلك إلى لبس في معاني ودلالة الخطاب الدعوي.
 - نستنتج أن الخطاب الدعوي في القرآن الكريم مبني على أسس متينة غير قابلة للانحراف وهو من جزئيات الخطاب الديني العام في القرآن الكريم.
 - أن الاختلاف هو سنة فطرية بين العباد لكن العاقل فيها أن يرجع كل خلافاته إلى منطق القرآن الكريم والسنة الشريفة صلى الله وسلم على صاحبها باعتبار القرآن والسنة هو المعيار لقياس وميزان الحقائق
 - وللخروج من مشكلة الخلاف التأويلي لابد من تحكيم وتفعيل الفهم العقلاني تجاه مضمون النصوص الخطابية دون غلو ولا تطرف بالاتباع لا بالابتداع كما دلت عليه أغلب الآيات القرآنية.
 - فلا سبيل للداعي العاقل صاحب الفكر الرشيد والبصيرة الثاقبة المؤهل لحمل الرسالة والدعوة إلى الله عز وجل في حل هذه المسائل ذات الطابع الدعوي إلا باتباع منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنظر في هديه وكيف كان يتعامل مع أصناف المدعوين.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور . (1414هـ). لسان العرب (المجلد 3). بيروت: دار صادر.
- ابن منظور. (1414هـ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
- عبد الحليم محمود. (1990). فقه الدعوة إلى الله. المنصورة: دار الوفاء للنشر والتوزيع.
- عبد الرحمن ابن خلدون. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.
- عطية عدلان. (10 03, 2022). تجديد الخطاب الدعوي في المرحلة القادمة. تاريخ الاسترداد 30 01, 2025, من مركز محكمات للبحوث والدراسات: <https://muhkamat.com>
- عطية عدلان. (10 03, 2022). تجديد الخطاب الدعوي في المرحلة القادمة. تاريخ الاسترداد 31 01, 2025, من مركز محكمات للبحوث والدراسات: <https://muhkamat.com>
- علي محفوظ. (1979م). هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة. دار الاعتصام.
- مركز تفسير للدراسات القرآنية، و الحافظ بن كثير. (1443هـ - 2021م). البسيط في اختصار تفسير ابن كثير. المملكة العربية السعودية - الرياض: دار تفسير للنشر والتوزيع.

References:

- Ibn manzūr. (1414h). Lisān al-‘Arab (al-mujallad 3). Bayrūt : Dār Ṣādir.
- Ibn manzūr. (1414h). Lisān al-‘Arab. Bayrūt : Dār Ṣādir.
- ‘Abd aālḥlym Maḥmūd. (1990). fiqh al-Da‘wah ilá Allāh. al-Manṣūrah : Dār al-Wafā’ lil-Nashr wa-al-Tawzī‘.
- ‘Abd al-Raḥmān Ibn Khaldūn. (1984). Tārīkh Ibn Khaldūn. Bayrūt : Dār al-Qalam.
- ‘Aṭīyah ‘Adlān. (10 03, 2022). Tajdīd al-khiṭāb al-da‘awī fī al-marḥalah al-qādimah. Tārīkh alāstrdād 30 01, 2025, min Markaz muḥkamāt lil-Buḥūth wa-al-Dirāsāt : <https://muhkamat.com>
- ‘Alī Maḥfūz. (1979m). Hidāyat al-Murshidīn ilá Ṭuruq al-wa‘z wa-al-khaṭābah. Dār al-I‘tiṣām.
- Markaz tafsīr lil-Dirāsāt al-Qur’ānīyah, wa al-Ḥāfiẓ ibn Kathīr. (1443h-2021m). al-Yasīr fī ikhtiṣār tafsīr Ibn Kathīr. al-Mamlakah al-‘Arabīyah als‘wdyt-al-Riyāḍ : Dār tafsīr lil-Nashr wa-al-Tawzī‘.